

الجزء الأول
تاريخ وهم السيادة

obeikandi.com

التوكيد الذي ننطلق منه شديد البساطة . السيادة تعني سلطة نهائية لا تخضع لمبدأ يسبقها يمكنه تهذيبها، وتعديلها، أو مراقبتها . ندرك بسهولة نجاح هذه الصيغة وشهية أولئك الذين يرغبون في استخدامها . مع ذلك لا تلبث ملحوظتان واضحتان كل الوضوح أن تتسببا في حبك العقدة : لم يكن مبدأ السيادة كائناً على الدوام، فقد عرفوا كيف يحكمون بخلاف ذلك، ومن غير استخدام لمبدأ لا ينتمي بالتأكيد إلى التاريخ بل إلى **أحد التواريخ** : فيما يتعلق بفكرة سلطة نهائية لا يسبقها شيء، لا يسعها إلا إزعاج منهجنا الديكارتي [منهج الفيلسوف ديكارت المتسم بالعقلانية] : ما من سلطة واحدة تسبح في فراغ متحررة من قوى تستطيع التأثير عليها، وإكراهها وتعديلها . في الواقع أن فكرة السيادة تذكرنا عادة **بقانون إيمان المسيحيين** الذي يصف الذات الإلهية بـ « العليُّ القدير، الذي به كان كل شيء » : هذا التقديس ليس نتيجة للمصادفة ويكشف عن جزء من تاريخ الفكرة وعنصر لا يستهان به من خاصياتها . والسيادة هي تمثل مثالي للواقع، كما أن هذا الإنشاء الاجتماعي والإنساني هو الذي جعلها بحق مشتبهاً فيها لدى الثقافات التي لا تندمج مع المسيرة العلمانية .

هكذا هي وهم اختلقته تواريخ معينة : مع ذلك فالعقدة ليست مكتملة تماماً بعد . لقد اشترك الكثيرون في تمثيل المشهد : منذ نهاية القرون الوسطى وجب على النظام السياسي أن يتكون بالتزامن في مواجهة الخارج (أو الذي سيصبح كذلك) وفي مواجهة الداخل (أو الذي سيفرض نفسه بهذه الصفة) . قام الملك، والبابا، والإمبراطور، ثم البورجوازيون، وأخيراً الشعب بتحديد علاقاتهم انطلاقاً من توصيف لهذه السلطة ومن تشكيل لفكرة السيادة الغامضة هذه عبر القرون . كان

نصير الدولية يرصد الآثار الخارجية لهذا النظام ؛ ونصير الدستورية يهتم بالعواقب الداخلية لهذا المسعى . مع ذلك عند المنشأ كان المبدأ واحداً : نلاحظ أنه قد تكون تحديدًا عند تحبيذه لهذا التمييز المطلق بين الداخلي والخارجي الذي نجد اليوم صعوبة كبيرة في جعله نسبيًا ، بناء عليه أصبح هذا الإبداع معقدًا ، ونتيجته مضطربة ، وممارساته اللاحقة شديدة الالتباس . هكذا برز مسرح دولي مثلما برزت بمصاحبه المشكلات والتناقضات والتقلبات .

* * *